على هامش زكرى المعرى

«داعى الدعاة» مناظر المعرى

للدكتور محمد كامل حسين

— ٥ —

من الآثار الأدبية التى تركها المؤيد فى الدين «داعى الدعاة» رسائله إلى أبى العلاء المعرى . وهى الرسائل التى نبهت الجيل الحديث للبحث عن هذا الداعية ، بعد أن ظل مجهولاً زهاء عشرة قرون ، ويرجع الفضل فى نشر هذه الرسائل إلى المرحوم الأستاذ مارجوليوث المستشرق الإنجليزى ، الذى نقل هذه الرسائل عن كتاب « معجم الأدباء » لياقوت الحموى ، ونشرها لأول مرة بمجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٨٩٦ ، ثم أعاد نشرها مرة أخرى بمجلة الجمعية الآسيوية سنة ١٩٠٢ ، وقدم لها بمقدمة صغيرة ادعى فيها أن هذه المناظرة كانت سنة ٤٣٨هـ ولكنى أخالفه فى تحديد هذه السنة ، وأذهب إلى أن هذه المناظرة إنما كانت سنة ٤٤٩هـ ، وعندى ما يؤيد ما ذهبت إليه ، فقد نقل ياقوت الحموى أنه « لما كانت المناظرة بين أبى العلاء ، وبين داعى الدعاة ، فى ذبح الحيوان ، أمر داعى الدعاة بأن يؤتى بأبى العلاء إلى حلب » . وفى الرسالة الثالثة والأخيرة من رسائل داعى الدعاة ، تصريح بأنه كان فى الشام أثناء هذه المناظرة . وهناك نص آخر ورد فى « المجالس المؤيدية » على لسان الخليفة المستنصر الفاطمي « حتى توجه من وجهناه من داعينا للقاء التركمانية فانعقد بينه (أى بين الداعي) وبينه (أى بين المعرى) من المناظرة مكاتبة لا مشافهة . فهذه النصوص تثبت أن هذه المناظرة جرت أثناء خروج المؤيد فى الدين لحرب طغرلبك ، وأن المؤيد كان بالشام وفى حلب ، وقد ذكرت فى مقالاتى السابقة أن المؤيد فى الدين خرج من مصر للقاء التركمانية سنة ٤٤٨هـ وكان بحلب سنة ٤٤٩هـ ، وتكاد تجمع المصادر على أن رسالة داعى الدعاة الأخيرة وصلت معرة النعمان بعد وفاة أبى العلاء بأيام قليلة ، ونحن نعلم أن المعرى توفى سنة ٤٤٩هـ

من التعابير ، وطائفة بعينها من المعانى ، وطائفة بعينها من الأخيلة لقرائح الكثرة الساحقة من شعراء الشباب ... وذلك دليل جلى على فقرهم الثقافى ، وندرة اضطلاعهم على الشعر العربى الزاخر بأكبر ثروة لفظية يمتلكها شعر أمة من الأمم ... شعر عاش منذ أكثر من ألفى سنة ، ولا يزال يعيش ، وسوف يعيش ؛ وإن كنا نطلب له عيشاً جديداً وحياة ثائرة مختلفة الأغراض متغايرة المقاصد عما اعتاد الشعر القديم — وكل الشعر العربى أو معظمه ، فى رأينا قديم

وقد تشترك الفئتان ، الذين يعرفون اللغات الأجنبية والذين لا يعرفونها ، فى ذلك العيب الواضح ... أى عدم الاطلاع الطويل العميق على كتب النقد ، قديمها وحديثها ... وعلى دواوين الشعر العربى قديمها وحديثها كذلك . إلا أن تقصير شعرائنا ، أو معظم شعرائنا ، الذين يجيدون لغة أجنبية ، فى الاضطلاع على شعر تلك اللغة ، واستيعاب ما نقل إليها من أشعار اللغات الأخرى ، قديمها وحديثها ، هو تقصير لا تبرره أسباب وجيهة ، اللهم إلا الغفلة والكسل وتراخى الهمة ...

ولست أدرى كيف يطيق شاعر يجيد اللغة الإنجليزية مثلاً ألا يستوعب درامات شيكسبير وبن جونسون ومارلو ، وألا يقرأ منظومات برونتج وشلى وبيرون وتنيسون وسكوت الطويلة الرائعة التى هى بلا شك خير ما نظم البشر وأحسن ما تغنت به الإنسانية ... ولست أدرى كيف يطيق شاعر يجيد اللغة الإنكليزية مثلاً ألا يقرأ ما ترجم إلى هذه اللغة من ملاحم الأقدمين كالإلياذة والأوذيسة والإنياذة والكوميديا الإلهية مثلاً وهى تلك الملاحم الخالدة فى عالم الشعر ، والتى لا ندعو دعوتنا إلا ليكون لنا مجد شعرى يشبه مجدها أو يدنو منه ... ولست أدرى كيف يطيق من يجيد اللغة الإنكليزية مثلاً ألا يقرأ كتب النقد الرائعة التى كتبها هازلت أو أرنولد ، ومدلتون ولامبورن ، وريتشارد ، وسبنجارا ، ومن إليهم من أساطين النقد الحديث

وبعد ... فهذا كلام لا نريد به تعيير أحد من شعراء الشباب الذين نعقد عليهم آمالنا فى النهوض بالشعر العربى الحديث ، ولكنه كلام نريد به حفز هم شعرائنا الذين يرجون بالنقد ويتشوفون إلى الكمال .

دمينى مشبة

وهناك بعض نصوص أخرى تؤيدان هذه المناظرة التي كانت بين الأديبين العالمين حدثت سنة ٤٤٩هـ . وسبب هذه المناظرة كما حدثنا المؤيد في مجالسه أنه جرى ذكر أبي العلاء المعري في مجلس الناظر بحلب ، فهجا الحاضرون أبا العلاء وأغروا الناظر بدمه ، وادعوا أن الغيرة على الدين تبيح قتله ، ولكن المؤيد في الدين اقترح على الحاضرين أن يجرد لأبي العلاء من يحاجه ويناظره حتى ينكشف عواره وينحط قدره بين معاصريه ، ويتخذ الناظر من هذه المناظرة ذريعة للقضاء على هذا الزنديق الخارج عن الدين ، ثم نشط المؤيد لمناظرته تلك المناظرة التي كانت من أسباب خلود المتناظرين

ويخيل إليّ أن المؤيد في الدين لم يسرف في الحكم على أبي العلاء إسراف معاصريه ، ولم ير في عقيدة أبي العلاء ما كان يراه غيره ، فقد رمى المعري بالإلحاد والتعطيل والخروج على دين الجماعة بل لا تزال عقيدة أبي العلاء إلى يومنا هذا موضع نقاش بين الأدباء والعلماء . أما رأي المؤيد داعي الدعاة في أبي العلاء فقد وضحه في مجالسه بقوله : قد انتهى إليكم خبر الضرير الذي نبغ بمعرة النعمان وما كان يعزى إليه من الكفر والطغيان على كون الرجل متقشفاً ، وعن كثير من المآكل التي أحل الله له متنزهاً . فهذا النص إن دل على شيء فإنما يدل على أن المؤيد لم يقبل كلام الناس في أبي العلاء ، ولم يذهب مذهبهم في اتهام دينه ، بل هذا النص دفاع عن تحريم المعري للحوم تعففاً منه وتقشفاً

ويخيل إليّ أيضاً أن غرض المؤيد من هذه المناظرة أن يعرف حقيقة مذهب أبي العلاء ، وأن يستوضح أسرار فلسفته وأسرار عقيدته فقد يكون أبو العلاء من الذين يتخذون التقية والستر حجاباً لهم ، ويوهمون الناس بغير ما يبطنون ولذلك بدأ المؤيد رسالته الأولى بشيء من الظرف والإعجاب بأبي العلاء ، ثم تراه في الرسالة الثانية يسخر بأبي العلاء ويتهكم به ، وفي الرسالة الثالثة يصرح بأنه لم يجد عند أبي العلاء ما كان يأمله

أما جواب المعري ؛ فيظهر منه أن أبا العلاء قد سمع بأمر المؤيد في الدين داعي الدعاة من قبل ، وكان يعرف مقدرته وحجته فبالغ في تعظيمه وتفخيمه ، إما خشية على نفسه من سطوة المؤيد وإما تأدباً معه في المناظرة لمركز المؤيد في الدعوة الفاطمية والدولة الفاطمية

ومهما يكن من شيء ، فالمؤيد في هذه المناظرة ضيق الخناق على أبي العلاء ، وكان أبو العلاء يتلمس الطرق للهرب من خصمه فأخذ يحاوره ويحاول الفرار من موضوع المناقشة وداعي الدعاة من ناحيته يجذبه نحو موضوع المناظرة ؛ فسؤال داعي الدعاة كان عن الأسباب التي أدت بأبي العلاء إلى تحريم أكل اللحوم والألبان . فكان جواب أبي العلاء في موضوع إرادة الله في الخير والشر ، ثم البراءة من أشعار قالها بعض الملحدين . أما سؤال الداعي فلم يجب عليه جواباً شافياً . ولو طالت حياة أبي العلاء لظفر الأدب العربي بثروة أدبية فلسفية لها قيمتها

أما ما قيل من أن المؤيد داعي الدعاة أمر بأن يحمل إليه المعري بحلب ليخيره بين الإسلام والموت ، وأن المعري خاف على نفسه ، فشرب السم ؛ فهذا ما لم يقبله أحد من القدماء ولا المحدثين

والآن نتساءل هل كان المعري يدين بمذهب الفاطميين ؟ فقد جاء في كتاب « الفلك الدوار في سماء الأئمة الأطهار » أن المعري كان أحد دعاة الحاكم بأمر الله الفاطمي وابنه الظاهر » !

ولا أدري من أين استقى مؤلف هذا الكتاب هذا الخبر إذ لم يقع بين يدي من كتب الدعاة ما يؤيد هذا الزعم ، بل لم أجد داعية من دعاة المذهب الفاطمي يشير إلى أن أبا العلاء كان من زمرتهم ولو صح هذا الخبر لوجدت الدعاة على عادتهم يطنطنون بذكر كل نابغة يظهر بينهم ، حتى لو فرض أن أبا العلاء اتخذ التقية لنفسه وستر حقيقة مذهبه ومرتبته في الدعوة لما خفي ذلك عن كبير دعاة المذهب وهو المؤيد في الدين ، ولما احتاج الداعي الأكبر إلى مناظرة المعري لكشف ستره ومعرفة حقيقة مذهبه ، لأن الداعي الأكبر عنده سجل الدعاة ، وهو أعرف الناس بهم

حقيقة نجد في لزوميات أبي العلاء بعض العقائد الفاطمية ، ولكن هذه الآراء التي ذكرها المعري لا تقوم دليلاً على اعتناقه المعري لهذا المذهب . فقد كانت التيارات الفكرية في عصر المعري تتحدث بهذه الآراء ، وكان المعري في وسط يخضع